﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ ﴾

وهؤلاء هم المنافقون الذين أعلنوا الإيمان وأبطنوا الكفر وقال الله عنهم :

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن ، هم حولوا الإيمان من عقيدة إلى مجرد كلمة تقال ، وكانوا فى غاية الحرص على تأدية مطلوبات الإسلام بالأعمال الظاهرية حتى يدفعوا عن إسلامهم الريبة . أما قلوبهم فهى مع الكفر ؛ لذلك أرادوا أن يُلَبِّسوا فى المنطق ويُدَلِّسوا فيه .

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة الحجرات)

ويفضحهم الحق أمام أنفسهم . وبالله عندما يعرفون أنهم مجرد مسلمين باللسان ولكن قلوبهم لم تؤمن ويخبرهم الرسول بذلك ويقول لهم بلاغاً عن الله : « قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » . وكانوا أسبق الناس إلى صفوف الصلاة ، وعندما فضحهم الرسول وأوضح لهم : أنتم لم تؤمنوا ولكنكم أسلمتم فقط . هنا عرفوا أن محمداً قد عرف خبايا قلوبهم بلاغاً عن الله .

ولو قالوا : إن محمداً هو الذى عرف هذه الخبايا لما اقتصر اعترافهم به كرسول ، بَلْ رُبَّما تمادوا فى الغىّ وأرادوا أن يجعلوه إلهاً . ولكن رسول الله يحسم الأمر : ويبينّ لهم أن الله هو الذى أبلغنى ، بدليل أنه أمر أن يقول لهم : « قل لم تؤمنوا » .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقر بأن هذا الأمر ليس فيه شيء من عنده بل هو مأمور بالبلاغ عن الله ربّه . وفى عصرنا قال برنارد شو : إن الذين يكذبون أن محمداً رسول من عند الله يريدون أن يجعلوه إلهاً ، فمن أين أتى بهذه الأشياء التى لم تكن معلومة فى عصره ؟ . .

إن الناس جميعا مطالبون بالتصديق بمحمد رسولاً من عند الله ؛ لأنه قال عن أشياء لا يمكن أن يقولها واحد من البشر . والرسول صلى الله عليه وسلم بذاته يوضح بحسم هذا الكلام ويبيّن أن هذا ليس من عندى ، لكنه من عند الله .

« قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » . وهذا كشف محرج ومنطقى لما فى قلوبهم ؛ لهذا قال السامعون للآية : الحمد لله أن هناك أملاً فى أن يدخل الإيمان قلوبنا . وقد دخل الإيمان فى قلوبهم بالفعل لأن كلمة (لمّا) تفيد نفى الإيمان عنهم فى الزمن الماضى ولكنها تفيد أيضا توقع وحصول الإيمان منهم وقد حصل .

« إن الذين آمنوا ثم كفروا ، ثم آمنوا ثم كفروا ، ثم ازدادوا كفراً » أى ماتوا على الكفر ، أو آمنوا بموسى ، ثم كفروا بعيسى ، وجاء أناس آخرون آمنوا بعيسى ، وازدادوا كفراً بعدم الإيمان بمحمد ، فليس من بعد محمد صلى الله عليه وسلم استدراك .

ويخبرنا سبحانه بمصيرهم : « لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً » لأنهم دخلوا فى الإيمان مرة ثم خرجوا من الإيمان . ومعنى سلوكهم أنهم قصدوا الفتنة لأن الآخرين سيشاهدونهم وقد آمنوا ، وسيشاهدونهم وهم يكفرون ، وسيعللون ذلك بأنهم عندما تعمقوا فى المسائل العقدية كفروا وهم يفعلون ذلك ليهوّنوا من شأن الإسلام ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

هم إذن يقصدون الفتنة بإظهار الإيمان ثم إعلانهم الكفر وفى ذلك تشكيك للمسلمين ، ويكون مصير مَن تردّدَ بَينَ الإيمان والكفر ، وكان عاقبة أمرهم أنهم ازدادوا كفرا يكون مصيرهم ما جاء فى قوله : « لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً » فهم قد دخلوا فى الخيانة العظمى الإيمانية التى يحكمها قوله الحق :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة النساء)

ويقول الحق عنهم هنا : « لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً » . والهداية - كما نعلم - ترد بمعانٍ متعددة . . فقد يكون المقصود منها الدلالة ، فإن شئت تدخل الإيمان وإن شئت لا ، ولا شأن لأحد بك . والمعنى الثانى هو المعونة ، أى يقدم لك الله ما يهديك بالفعل . وعندما تعرض القرآن لهذه المسألة قال :

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة فصلت)

فسبحانه هنا قد دلهم على الهداية ، ولم يقدم لهم الهداية الفعلية لأنهم استحبوا العمى على الهدى ، فكأن الله قد دل على المنهج الذى يوصل الخير والبر لكل الناس ، فمن أقبل بإيمان فالحق يمده بهداية المعونة ويعاونه على ازدياد الهدى ، مصداقاً لقوله :

﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾

(من الآية ١٣ سورة الكهف)

ولا نريد لهذا المثل أن يغيب عن الأذهان ؛ لذلك أؤكده دائما : شرطى المرور الواقف فى بداية الطريق الصحراوى . يسأله سائل : ذاهب إلى الإسكندرية عن الطريق ؛ فيدله على الطريق الموصل للإسكندرية ، هنا قام الشرطى بالدلالة ، ثم شكر الرجلُ الشرطىَّ وحمد الله على حسن شرح الشرطى ؛ ويحس ويشعر رجل المرور بالسعادة ، ويحذر الرجل المسافر من عقبات الطريق ، ويركب معه ليشير له على تلك العقبات حتى يتفاداها . أى أنه من بعد الدلالة قد حدثت المعونة . كذلك الحق يدل الناس على الإيمان وعلى المنهج ، فالذى يؤمن به يساعده ويخفف عليه

الطاعة ، قال الحق سبحانه فى شأن الصلاة :

﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة البقرة)

إذن نحن نجد الهداية على مرحلتين : هداية الدلالة ، وهداية المعونة .

ويريد الحق لقضية الإيمان أن تكون قضية ثابتة متأصلة بحيث لا تطفو إلى العقل لتناقش من جديد . فمبدأ الإيمان لا يتغير فى مواكب الرسالات من سيدنا آدم إلى أن ختمها بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

إذن سبحانه يريد من المؤمن أن يؤمن بالقمة العليا ، وهى الإيمان بالله واجب الوجود الأعلى ، وأن يؤمن بالبلاغ عنه كتاباً ، وأن يؤمن بالبلاغ عنه رسالة على لسان أى رسول . والذين يؤمنون مرة برسول ثم يكفرون برسول آخر ، أو الذين يؤمنون برسول ثم يكفرون بنسبة الصاحبة أو الولد لله ثم يزدادون كفراً بالخاتم وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لهم مجال مع الهداية إلى الله ؛ لأن الإسلام جاء بالنهاية الخاتمة وليس للسماء من بعد ذلك استدراك ، وليس لأحد من بعد ذلك استدراك ، ولذلك قال فى أول الآية : « آمنوا ثم كفروا . ثم آمنوا . ثم كفروا » . وقال فى آخر الآية: « ثم ازدادوا كفرا » أى أنهم لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وليس هناك مجال أن ينتظروا رسولاً آخر لينسخوا كفرهم بمحمد ويؤمنوا بالرسول الجديد .

ويوضح سبحانه : لم يكن الله ليهديهم لأنهم هم الذين صرفوا أنفسهم عنه ، فالله لا يمنع الهداية عمن قدم يده ومدّها إليه ، بل يعاونه فى هدايته ، أما من ينفض يده من يد الله فلا يبايعه على الإيمان فالله غنى عنه ، ومادام الله غنياً عنه فسيظل فى ضلاله ؛ لأن الهداية لا تكون إلا من الله . ولم يكن الله ليهديهم سبيلاً إلى هداية

أخرى ولا هادى إلا هو . ولم يكن الله ليهديهم سبيلاً إلى الجنة ؛ لأنهم لم يقدموا الأسباب التى تؤهلهم للدخول إلى الجنة .

ولذلك يشرحها الله فى آية أخرى :

﴿ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾

(من الآية ١٦٨ ومن الآية ١٦٩ سورة النساء)

وهكذا نجد طريق جهنم معبداً مُذَلَّلاً بالنسبة لهم .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ﴾

سمة التردد والتذبذب بين الإيمان والكفر لا تأتى من أصيل فى الإيمان ، بل تأتى من متلون فى الإيمان ، تبدو له أسباب فيؤمن ، وبعد هذا تبدو له أغيار فيكفر . وذلك شأن المنافقين المذبذبين بين هؤلاء وهؤلاء . فيقول الحق : « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً » .

ونحن نعلم أن المنافق هو الذى جمع بين أمرين : إعلان إسلام ، وإبطان كفر . والنفاق مأخوذ من نافقاء اليربوع ، وهى إحدى جحوره التى يستتر ويختفى فيها ، واليربوع حيوان صحراوى يخادع من يريد به شراً فيفتح لنفسه بابين ؛ يدخل أمام الرجل من باب ثم يخرج من باب آخر . فإن انتظره الرجل على باب فاليربوع يخرج من الآخر .

« بشر المنافقين » والبشارة هى الإخبار بشىء يسر سيأتى زمنه بعد . وهل المنافقون يبشرون ؟ لا . إن البشارة تكون بخير ؛ لذلك نتوقع أن ينذر المنافقون ولا يبشرون ، ولكن لله فى أساليبه البلاغية تعبيرات لتصعيد العذاب . فلو قال :

أنذرهم بعذاب أليم ، لكان الكلام محتملاً ، فهم - كمنافقين - مستعدون لسماع الشر . ولكن الحق يقول : « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً » وذلك هو التهكم والاستهزاء والسخرية ، وهى من معينات البليغ على أداء مهمته البلاغية . ونسمع المفارقات أحياناً لتعطينا صورة أصدق من الحقيقة . فإذا جئت إلى بخيل مثلاً ، وقلت له : مرحباً بك يا حاتم . ماذا يكون موقف من يحضر هذا اللقاء ؟

أنت تنقله من واقع البخيل إلى تصور حاتم الطائى أصل الكرم . وبذلك نقلت البخيل نقلتين : نقلة من وضعه كبخيل ؛ ثم السخرية منه ؛ لأن قولك لبخيل ما : يا حاتم هو تقريع وتهكم وسخرية واستهزاء ، لأنك نقلته من وصف خسيس وحقير إلى وصف مقابل هو سَام ورفيع وعظيم تحقيرا له واستهزاء به ، ومن المقارنة يبدو الفارق الكبير . وإذا ما جئت مثلاً لرجل طويل جداً ، وقلت : مرحبا بك يا قزم . هذه هى المفارقة ، كما تقول لقصير : مرحبا يا مارد . أو إذا جئت لطويل لتصافحه ، فيجلس على الأرض ليُسلم عليك . . هذه أيضاً مفارقة . وإن جئت لرجل قصير لتصافحه فتجلس على الأرض لتسلم عليه فهذه هى السخرية والتهكم .

وهذه المفارقات إنما تأتى للأداء البلاغى للمعنى الذى يريده المتكلم ، فقول الحق : « بشر المنافقين » معناه : أنكم أيها المنافقون قد صنعتم لأنفسكم بالنفاق ما كنتم تحبون ، وكأنكم نافقتم لأنكم تحبون العذاب . ومادمتم قد نافقتم لأنكم تحبون العذاب ، فأنا أبشركم بأنكم ستتعذبون . والذى ينافق ألا يريد من ذلك غاية ؟ لذلك يصور له الحق أن غايته هى العذاب ، فقال الحق : « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً » .

إنك حين تريد تصعيد أمر ما ، فأنت تنقل مخاطبك من شىء إلى الشىء المقابل وهو النقيض ، مثال ذلك : إنسان عطشان لأنه محجوز أو مسجون وأراد أن يشرب شربة ماء ، من الممكن أن يقول له الحارس : لا . ويجعله ييأس من أن يأتى له بكوب ماء ، أما إن أراد الحارس تصعيد العذاب له فهو يذهب ويأتى بكوب ماء ويقربه منه ، فإذا مد السجين يده ليأخذ كوب الماءِ فيسكب الحارس كوب الماء على الأرض هذا هو تصعيد العذاب . وحين يقال:« بَشر » فالمستمع يفهم أن هناك شيئاً

يسر ، فإذا قال الحق : « بأن لهم عذاباً أليماً » فمعنى ذلك أن الغم يأتى مركباً . فقد بسط الحق أنفسهم بالبشارة أولاً ، ثم أنهاها بالنذارة .

وعلى سبيل المثال ـ ولله المثل الأعلى ـ يقول الأب لابنه : استذكر يا بنى حتى لا ترسب ، لكن الابن يستمر فى اللعب ثم يقول الأب : يابنى لقد اقترب الامتحان ولا بد أن تذاكر . ولا يأبه الابن لكلام الأب ، ثم يأتى الامتحان ويذهب الأب يوم اعلان النتيجة ، فيكون الابن راسباً ؛ فيقول الأب لابنه : أهنئك لقد رسبت فى الامتحان ! فقوله أهنئك تبسط نفس الابن ؛ لأنه يتوقع سماع خبر سار ، ويسمع بعدها لقد رسبت تعطيه الشعور بالقبض .

والحق سبحانه وتعالى يبلغ رسوله : « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً » « بشر » لها علاقة بالمدلول الاشتقاقى ؛ لأن الانفعالات يظهر أثرها على بشرة وجهه ؛ فإن كان الانفعال حزنا فالوجه يظهر عليه الحزن بالانقباض ، وإن كان الانفعال سروراً فالوجه يظهر عليه السرور بالانبساط . وتعكس البشرة انفعالات النفس البشرية من سرور وبشاشة وإشراق أو عبوس وتجهم ، فالبشارة تصلح للإخبار بخبر يسر ، أو بخبر يحزن ويسىء ، ولكنها غلبت على الخبر السار ، وخصت النذارة بالخبر الذى يحزن وتنقبض النفس له .

« بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً » . والبشارة ـ كما قلنا ـ توحى بأن هناك خبراً ساراً ، فيأتى الخبر غير سار . وكما يقول الحق فى آية أخرى يصور بها عذاب الكافرين يوم القيامة وكيف أنّه يصعد العذاب معهم :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ساعة نسمع « وإن يستغيثوا يغاثوا بماء » نفهم أن برداً يأتى لهم أو رحمة تهب عليهم ، ولكن الإغاثة التى تأتى لهم هى :

﴿ كَٱلْمُهْلِ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ويتساءل السامع أو القارىء : هل هذه إغاثة أو تعذيب ؟ وهذا تصوير لتصعيد العذاب ؛ فالماء الذى يعطى لهم كالمهل يصعِّد الألم فى نفوسهم .

والعذاب - كما نعلم - يأخذ قوته من المعذِّب ، فإن كان المعذِّب ذا قوة محدودة ، كان العذاب محدوداً . وإن كان المعذِّب غير محدود القوة فالعذاب غير محدود ، فإذا ما نسب العذاب إلى قوة القوى وهو الله فكيف يكون ؟ والعذاب يوصف مرة بأنه أليم ، ومرة بأنه مهين ، ومرة بأنه عظيم ، هذه الأوصاف كلها تتجمع ولكل وصف منها جهة ؛ فالألم هو إحساس النفس بما يتعبها ، والعذاب العظيم هو العذاب الذى يبلغ القمة ، وقد يبلغ العذاب القمة ولكن المعذَّب يتجلد ، وعذاب الحق يفوق قدرة متلقى العذاب فلا يقدر أن يكتم الألم ؛ لأن درجة تحمل أى إنسان مهما تجلد لا تستطيع أن تدفع الألم ، ومع العذاب العظيم ، نجده أليما أيضا ، فيكون العذاب الأليم العظيم مؤلما للمادة ، لكن النفس قد تكون متجلدة متأبية ثم تنهار ، حينئذ يكون العذاب مهينا .

ولأن المنافقين والكفار غارقون فى المادية آثر الله وصف العذاب بأنه أليم لأن الإيلام يكون للمادة ، ثم يذكر الحق سبحانه وتعالى بعض الأوصاف للمنافقين فيقول :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾

وأول مظهر من مظاهر النفاق أن يتخذ المنافقُ الكافرَ ولياً له ؛ يقرب منه ويوده ، ويستمد منه النصرة والمعونة ، والمؤانسة ؛ والمجالسة ، ويترك المؤمنين . وعرفنا أن كل فعل من الأفعال البشرية لا بد أن يحدث لغاية تُطلَب منه ، ولا يتجرد الفعل عن

الغاية إلا فى المجنون الذى يفعل الأفعال بدون أى غاية ، لكن العاقل يفعل الفعل لغاية ، ولهدف يرجوه . والمنافقون يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين لأى غاية ولأى هدف ؟

ويكشف الحق هذه المسألة فيوضح : أنهم يبتغون العزة من الكافرين ، ولذلك اتخذوهم أولياء من دون المؤمنين . ويلفتهم - جل شأنه - إلى جهلهم ؛ لأنهم أخذوا طريقاً يوصلهم إلى ما هو ضد الغاية .

فمادامو يبتغون العزة فليعرفوا أولاً : ما العزّة ؟. العزة مؤخوذة من معنى مادى وهو الصلابة والشدة . فالأرض العَزَاز أى الصلبة التى لا ينال منها المعول ، ثم نقلت إلى كل شديد ، فكل شىء شديد فيه عِزّة . والمراد بها هنا : الغلبة والنصر ، وكل هذه المعانى تتضمنها العزة .

فإذا قيل : الله عزيز . . أى أنه سبحانه وتعالى غالب على أمره شديد لا يمكن أن يقدر على مِحاله أو مكره أو قوته أو عقابه أحد . وإذا قيل:فلان عزيز أى لا يُغلب ، وإذا قيل:هذا الشىء عزيز أى نادر ، ومادام الشىء نادراً فهو نفيس ، والمعادن النفيسة كلها أخذت حظها من ندرتها وقلتها .

وما دمتم أيها المنافقون تطلبون العزة ، ألا تطلبونها ممن عنده ؟. أتطلبونها من نظائركم ؟. وعندما تطلبون العزة فذلك لأنكم لا تملكون عزة ذاتية ، فلو كانت عندكم عزة ذاتية لما طلبتم العزة من عند الكافرين . وهذا دليل على فقدانهم العزة لأنهم طلبوها من مساوٍ لهم من الأغيار ، فالنافقون بشر ، والكفار بشر ، وبما أن كل البشر أغيار ، فمن الممكن أن يكونوا أعزاء اليوم وأذلاء غداً ؛ لأن أسباب العزة هى غِنى أو قوة أو جاه ، وكل هذه من الأغيار .

فأنتم أيها المنافقون قد طلبتم العزة ممن لم يزد عليكم ، وهو من الأغيار مثلكم ، ولم تطلبوها من صاحب العزة الذاتية الأزلية الأبدية وهو الحق سبحانه وتعالى ، ولو أردتم العزة الحقيقية التى تغنيكم عن الطلب من الأغيار مثلكم فلتذهبوا إلى مصدر العزة الذى لا تناله الأغيار وهو الحق سبحانه وتعالى .

لذلك أوضح لهم الحق : إن أردتم أن تتعلموا طلب العزة فعليكم أن تغيروا من أسلوبكم فى طلبها ، فأنتم تتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين وتبتغون عندهم العزة وهم من أهل الأغيار ، والأغيار تتبدل من يوم إلى يوم ، فإن كان الكفار أغنياء اليوم ، فغداً لن يكونوا كذلك ، ولقد رأيتم كبشر أن الغنىَّ يفتقر ، ورأيتم قوياً قد ضعف ، وطلب العزة من الأغيار يعنى أنكم غير أعزاء ، ومع ذلك فأنتم تطلبون العزة من غير موضعها . فإن أردتم عزة حقيقية فاطلبوها ممن لا تتغير عزته وهو الحق سبحانه وتعالى : « فإن العزة لله جميعاً » .

وفى هذا القول تصويب لطلب العزة . وليطلب كل إنسان العزة إيمانا بالله ؛ فسبحانه الذى يهب العزة ولا تتغير عزته : « فإن العزة لله جميعاً » . وكلمة « جميعاً » هذه دلت على أن العزة لها أفراد شتى : عزة غنى ، عزة سلطان ، عزة جاه ، فإن أراد واحد أن يعرفها ويعلمها فهى ـ جميعا ـ فى الحق سبحانه وتعالى .

والمؤمنون فى عبوديتهم لله عبيد لإله واحد ؛ وقد أغنانا الله بالعبودية له عن أن نذل لأناس كثيرين . وسبحانه قد أنقذ المؤمن بالإيمان من أن يذل نفسه لأى مصدر من مصادر القوة ، أنقذ الضعيف من أن يذل نفسه لقوى ، وأنقذ الفقير من أن يذل نفسه لغنى ، وأنقذ المريض من أن يذل نفسه لصحيح .

إذن ساعة يَقول الحق : « فإنّ العزة لله جميعا » فمعناها : إن أردت أيها الإنسان عزاً ينتظم ويفوق كل عز فاذهب إلى الله ؛ لأنه سبحانه أعزنا فنحن خلقه ، وعلى سبيل المثال نجد أن الحق لم يجعل الفقير يقترض ، بل قال :

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ ﴾

(من الآية ٢٤٥ سورة البقرة)

وهنا يرفع الله عبده الفقير إلى أعلى درجات العزة . العبد الفقير لا يقترض ، ولكن القرض مطلوب لله ، ولذلك قال أحدهم لأحد الضعفاء : إنك تسأل الناس ، ألا تعف ولا تسأل ؟ . فقال : أنا سألت الناس بأمر الله ، فالسائل يسأل بالله ، أى أنه يتخذ الله شفيعاً ويسأل به . وعندما يطلب الإنسان العزة من مثيل له ، فهو يعتز بقوة هذا الكائن وهى قوة ممنوحة له من الله وقد يستردها ـ سبحانه ـ

منه . فما بالنا بالقوة اللانهائية لله ، وكل قوة فى الدنيا موهوبة من الله ، المال موهوب منه ، والجاه موهوب منه ، وكل عزة هى لله .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾

يأمر الحق المؤمنين أنهم إذا سمعوا بعضاً من الكافرين يهزأ بآيات الله أو يكفر بها فلا يقعدوا معهم إلا أن يتحولوا إلى حديث آخر ، وذلك حتى لا يكونوا مثل الكافرين لأنه سبحانه سيجمع المنافقين والكافرين فى جهنم ، وبذلك يحمى الله وحدهُ أهل الإيمان ، ويصونهم من أى تهجم عليهم ، فالذين يغارون على الإيمان هم الذين آمنوا ، فمادمت قد آمنت وارتضيت لنفسك الإسلام فإياك أن تهادن من يتهجم على الدين ؛ لأنك إن هادنته كان أعز فى نفسك من الإيمان ، ومادمت أيها المؤمن قد ارتضيت الإيمان طريقاً لك وعقيدة فلتحم هذا الإيمان من أن يَتَهَجَّم عليه أحد ، فإن اجترأ أحد على الإيمان بشيء من النقد أو السخرية أو الرمى بالباطل . . فالغيرة الإيمانية للمسلم تحتم عليه أن يرفض هذا المجلس .

وكان المؤمنون فى البداية قلة مستضعفة لا تستطيع الوقوف فى وجه الكافرين أو المنافقين ، فساعةَ يترك المؤمنون الكافرين أو المنافقين لحظة اللغو فى آيات الله ، فالكافرون والمنافقون يعلمون بذلك السلوك أن عِرض الإيمان أعز على المسلمين من مجالسة هؤلاء . أما إذا جالسهم مسلم وهم يخوضون فى الإيمان . . فهذا يعنى أنهم أعز من الإيمان ، والكافرون قد يجعلونها حديثاً مستمراً لسبر غور الإيمان فى قلوب

المسلمين . أما حين يرى الكافر مؤمناً يهب وينفر من أى حديث فيه سخرية من الإسلام ، هنا يعرف الكافر أن إيمان المسلم عزيز عليه .

وهذه الآية ليست آية ابتدائية إنما هى إشارة إلى حكم سبق ، ونعرف أنها نزلت فى المدينة ؛ فالحق يقول : « وقد نزَّلَ عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها » ومعنى هذا أن هناك آية قد نزلت من قبل فى مكة ؛ ويقول فيها الحق :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ويشير الحق هنا إلى أنه قد أنزل حكماً فى البداية ، وهو الحكم الذى نزل مع الكافرين فى مكة ؛ حيث استضعف الكافرون المؤمنين ، ولم يكن المنهج الإيمانى قد جاء بمنع المؤمنين أن يجالسوا الكافرين ، فقد كان بعض المؤمنين عبيداً للكافرين ، وبعض المسلمين الأوائل كان لهم مصالح مشتركة قائمة مع الكافرين وجاء الحكم : إن ولغ هؤلاء الكافرون فى الدين بالباطل فاتركوا لهم المكان .

وسبحانه هنا فى سورة النساء يذكر المؤمنين بأن حكم ترك الكافرين لحظة اللغو فى الإيمان هو حكم ممتد منقول للمؤمنين من البيئة الأولى حيث كنتم أيها المؤمنون مع المشركين عبدة الأصنام ، والحكم مستمر أيضاً فى المدينة حيث يوجد بعض أهل الكتاب . والتكليف من الله ، هو تكليف بما يطيقه الجنس البشرى ؛ فالإنسان عرضة لأن ينسى ، وعليه بمجرد أن يتذكر فليقم تاركاً هؤلاء الذين يخوضون فى آيات الله . وقد نزل فى القرآن أن إذا سمع المؤمنون من يكفر بآيات الله ويستهزىء بها فليغادروا المكان ، ونلحظ أن الذى نزل فى الآية الأولى ليس سماعاً بل رؤية :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الأنعام)

ويأتى السماع فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : « وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها » والمهم هو مجرد العلم سواء كان رؤية أو

سماعاً بأنهم يخوضون فى دين الله ؛ فقد يخوض أهل الشرك أو غيرهم من أعداء الإسلام بما يُرى ، وقد يخوضون بما يسمع ، وقد يخوض بعض المشركين بالغمز أو اللمز من فور رؤيتهم لمسلم .

وقوله الحق : « فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره » يوحى أنهم إذا ما خاضوا فى حديث غير الخوض فى آيات الله فليقعد المؤمنون معهم . وكان ذلك فى صدر الإسلام ، والمؤمنون لهم مصالح مشتركة مع المشركين وأهل الكتاب ، ولا يستطيع المجتمع الإسلامى آنئذ أن يتميز بوحدته ، فلو قال لهم الحق على لسان رسوله : لا تقعدوا مع الكافرين أو المشركين فوراً . لكان فى ذلك قطع لمصالح المؤمنين .

وكلمة « يخوضون » تعطى معنى واضحاً مجسماً ؛ لأن الأصل فى الخوض أن تدخل فى مائع .. أى سائل ، مثل الخوض فى المياه أو الطين ، والقصد فى الدخول فى سائل أو مائع هو إيجاد منفذ إلى غاية .

وساعة تخوض فى مائع فالمائع لا ينفصل حتى يصير جزءاً هنا وجزءاً هناك ويفسح لك طريقاً ، بل بمجرد أن يمشى الإنسان ويترك المائع يختلط المائع مرة أخرى ، ولذلك يستحيل أن تصنع فى المائع طريقاً لك . أما إذا دخل الإنسان فى طريق رملىّ فهو يزيح الرمال أولاً ويفسح لنفسه طريقاً . ولا تعود الرمال إلى سَدّ الطريق إلا بفعل فاعل ، وأخذوا من هذا المعنى وصفَ الأمر الباطل بأنه خوض ؛ ذلك أن الباطل لا هدف له وهو مختلط ومرتبك ، والجدال فى الباطل لا ينتهى إلى نتيجة .

إذن « الخوض » هو الدخول فى باطل ، أو الدخول إلى ما لا ينتهى الكلام فيه إلى غاية . ويقرر العلماء : لا تخوضوا فى مسألة الصفات العلية ؛ لأنه لا يصح الخوض فيها ، والكلام فيها لن ينتهى إلى غاية . ولذلك يقول الحق فى موقع آخر بالقرآن الكريم :

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ

﴿ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ
ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

لقد أبلغتهم يا محمد أن الذى أنزل الكتاب عليك هو الحق سبحانه وتعالى الذى أنزل من قبلُ التوراةَ فأخفيتم بعضها وأظهرتم البعض الآخر ، ثم بعد البلاغ اتركهم يخوضون فى باطلهم .

وفى موقع آخر يتكلم الحق من الخوض :

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا
إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ
أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة التوبة)

إذن الخوض هو الدخول فى مائع ، ومادمت قد دخلت فى مائع فلن تجد فيه طريقاً محدداً بل يختلط المدخول فيه بالمدخول عليه فلا تتميز الأشياء ، وأخذ منه الخوض بالباطل أو الخوض باللعب الذى ليس فيه غاية .

« وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يُكفر بها ويُستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره » .

وتأتى الكلمة التى ترهب المؤمن وترعبه : « إنكم إذاً مثلهم » أى إنكم إذا قعدتم معهم وهو يخوضون فى آيات الله تكفرون مثلهم ؛ لأنكم تسمعون الخوض فى الدين بالباطل ، ومن يرض بالكفر يكفر .

لقد أعطتنا الآية مرحلية أولية ، فإذا ما كانت البيئة الإيمانية مجتمعاً ذاتياً متكافلاً فليس لأحد من المؤمنين أن يجالس الكافرين ، ولا نواليهم إلا إذا والونا ؛ لأن

الجلوس معهم فى أثناء الخوض فى الدين يجرئهم على مناهج الله ، وعلى المؤمن أن ينهر أى ساخر من الدين . وعلى المؤمنين أن يعرضوا عمّن ينحرف عن منهج الله أو يتعرض له . ولكن المجتمعات المعاصرة تكرم من يخوض بالباطل ؛ وفى ذلك إغراء للناس على أن يخوضوا فى الدين بالباطل .

لكن لو أعرضنا عن ذلك فسيلتمس الخارجون عن منهج الله وسيلة غير طريق الاجتراء على الدين والخوض بالباطل فى دين الله ومنهجه . وفساد المجتمع إنما يأتى من أننا نرى من يخوض فى دين الله بالباطل يكرمه البعض ويعطيه مكانة ومنزلة .

وقوله الحق : « وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم » نعلم منه وسيلة للإعلام البشرى هى أن يرى الإنسان فعلاً أو يسمع قولاً . فإن رأيت أيها المسلم فعلاً يشجع منهج الفساد فى الأرض فاعلم أن ذلك خوض فى دين الله بالباطل .

وقوله الحق : « فلا تقعدوا معهم » هو إيذان بالمقاطعة ؛ فلو أن إنساناً بهذا الشكل يسكن فى منزل ، ويذهب إلى البقال ليشترى منه شيئاً ليأكله فيرفض البيع له ، وكذلك الجزار ، وكذلك أى إنسان فى يده مصلحة لمثل هذا الخارج عن المنهج ، وبذلك تكون المقاطعة حتى يتأدب ، ويعلم كل إنسان أن المجتمع غيور على دينه الذى آمن به ، وأن الله أعز عليهم من كل تكريم يرونه فى مجتمعهم ، ولو أن كل واحد من هؤلاء المنحرفين والموغلين فى الباطل لو رأوا المجتمع وقد قاطعهم ووضع لهم حدوداً لذهبوا إلى الصواب ولبحثوا عن شىء آخر ومجال آخر يأكلون العيش منه ويطعمون أولادهم اللقمة الحلال من هذا العمل المشروع .

ويقول الحق : « إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا » ولا تستبطئوا هذه الحياة ؛ لأن المسلم لا يأخذ الأمور بعمر الدنيا كقرن أو اثنين أو حتى عشرة قرون ، بل عليه أن يعرف أن الدنيا بالنسبة له هى عمره فيها ، والعمر يمكن أن ينتهى فجأة ، ويعمل المسلم لا من أجل الدنيا فقط ، ولكن من أجل أن يلقى الله مسلما فى الآخرة ، والمؤمن يخشى أن يحشره الله مع المنافقين والكافرين فى جهنم ، وهذا مصير من يقبل السخرية أو الاستهزاء بدينه .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ
قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ
قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ
فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ
لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾

وقوله الحق : « الذين يتربصون بكم » وصف للمنافقين ، ويتربص فلان بفلان . أى أن واحداً يتحفز ليتحسس أخبار آخر ، ويرتب حاجته منه على قدر ما يرى من أخبار ، وعرفنا هذا المعنى من قوله الحق :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

ويتربص المنافقون بالمؤمنين لأنهم إن وجدوا خيراً قد أتى لهم فهم يريدون الاستفادة منه ، وإن جاء شر فالمنافقون يتجهون للاستفادة من الخصوم ، فظاهراً هم يعلنون الإيمان وهم فى باطنهم كفار . وهم يتربصون بالمؤمنين انتظاراً لما يحدث وليرتبوا أمورهم على ما يجىء .

« الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم » فإن فتح الله بنصره على المؤمنين فى معركة وأخذوا مغانم قال المنافقون : « ألم نكن معكم » ، فلابد لنا من سهم فى هذه الغنيمة . وإذا انتصر الكفار يذهبون إلى الكافرين مصداقاً لقول الحق : « وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين » .

هم يحاولون إذن الاستفادة من الكفار بقولهم : لقد تربصنا بالمؤمنين وانتظرنا ما يحدث لهم ، ولا بد لنا من نصيب . ويقول الحق على ألسنتهم : « قالوا ألم

نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين » واستحوذ على الشيء أى حازه وجعله فى حيزه وملكه وسلطانه . والحق هو القائل :

﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٢ سورة المجادلة)

أى جعلهم الشيطان فى حيزه ، وقول المنافقين للكافرين : « ألم نستحوذ عليكم » يكشف موقفهم عندما تقوم معركة بين معسكرى الكفر والإيمان فيحاول المنافقون معرفة تفاصيل ما ينويه المؤمنون ، ولحظة أن يدخل المنافقون أرض المعركة فهم يمثلون دور من يأسر الكافرين حماية لهم من سيوف المؤمنين . ثم يقولون للكافرين : نحن استحوذنا عليكم أى منعناكم أن يقتلكم المؤمنون ، ويطلبون منهم الثمن .

ولنر الأداء البيانى للقرآن حين يقول عن انتصار المؤمنين : « فإن كان لكم فتح » أما تعبير القرآن عن انتصار الكافرين فيأتى بكلمة « نصيب » أى مجرد شيء من الغلبة المؤقتة . ثم يأتى القول الفصل من الحق : « فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً » .

وحين يرد الله أمر الكافرين والمؤمنين لا يرده دائماً إلى أمد قد لا يطول أجل السامع وعمره ليراه فى الدنيا ، فيأتى له بالمسألة المقطوع بها ؛ لذلك لا يقول للمؤمن : إنك سوف تنتصر . فالمؤمن قد يموت قبل أن يرى الانتصار . ولذلك يأتى بالأمر المقطوع وهو يوم القيامة حين تكون الجنة مصيراً مؤكداً لكل مؤمن ؛ لأن الحياة أتفه من أن تكون ثمناً للإيمان .

ويعلمنا الرسول صلى الله عليه وسلم ألا نطلب الثمن فى الدنيا ؛ لأن الغايات تأتى لها الأغيار فى هذه الدنيا ، فنعيم الحياة إما أن يفوت الإنسان وإما أن يفوته الإنسان . وثمن الإيمان باقٍ ببقاء من آمنت به . إن القاعدة الإيمانية تقول : من يعمل صالحاً يدخل الجنة ، والحق يقول عن هؤلاء الصالحين :

﴿ فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

(من الآية ١٠٧ سورة آل عمران)

أى أن الجنة باقية بإبقاء الله لها ، وهو قادر على إفنائها ، أما رحمة الله فلا فناء لها لأنها صفة من صفاته وهو الدائم أبداً . وحين يقول الحق سبحانه وتعالى : « فالله يحكم بينكم يوم القيامة » أى لن يوجد نقض لهذا الحكم ؛ لأنه لا إله إلا هو وتكون المسألة منتهية . وقد حكم الحق سبحانه وتعالى على قوم من أقارب محمد صلى الله عليه وسلم ، لقد حكم الله على عم الرسول ، فقال فيه :

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ (٤) فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ (٥) ﴾

(سورة المسد)

قول الحق سبحانه : « سيصلى ناراً ذات لهب » يدل على أن أبا لهب سيموت على الكفر ولن يهديه الله للإيمان ، مع أن كثيراً من الذين وقفوا من رسول الله مواقف العداء آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويشهد معسكر الكفر فقدان عددٍ من صناديده ، ذهبوا إلى معسكر الإيمان ، فها هوذا عمر بن الخطاب ، وخالد ابن الوليد ، وعكرمة بن أبى جهل وغيرهم كل هؤلاء آمنوا . فما الذى كان يدرى محمداً صلى الله عليه وسلم أن أبا لهب لن يكون من هؤلاء ؟ ولماذا لم يقل أبو لهب : قال ابن أخى : إننى سأصلى ناراً ذات لهب ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقلت كلمة الإيمان . لكنه لم يقل ذلك وعلم الله الذى حكم عليه أنه لن يقول كلمة الإيمان .

ألم يكن باستطاعة أبى لهب وزوجه أن يقولا فى جمع : نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويتم انتهاء المسألة ؟ ولكن الله الذى لا معقب لحكمه قد قضى بكفرهم ، وبعد أن ينزل الحق هذا القول الفصل فى أبى لهب وزوجه يأتى قول الحق فى ترتيبه المصحفى ليقول ما يوضح : إياكم أن تفهموا أن هذه القضية تنقض ، فسيصلى أبو لهب ناراً ذات لهب وامرأته حمالة الحطب ، وقال الحق بعدها مباشرة :

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ (١) ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ (٢) ﴾

(سورة الإخلاص)

فلا أحد سيغير حكم الله . .

إذن فقوله الحق : « فالله يحكم بينهم يوم القيامة » أى لا معقب لحكم الله ،

فلا إله غيره يعقب عليه . « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً » وهذه نتيجة لحكم الله ، فلا يمكن أن يحكم الله للكافرين على المؤمنين . ولن يكون للكافرين حجة أو قوة أو طريق على المؤمنين . وهل هذه القضية تتحقق فى الدنيا أو فى الآخرة ؟ ونعلم أن الحق يحكم فى الآخرة التى تعطلت فيها الأسباب ، ولكنه جعل الأسباب فى الدنيا ، فمن أخذ بالأسباب فنتائج الأسباب تعطيه ؛ لأن مناط الربوبية يعطى المؤمن والكافر ، فإن أخذ الكافرون بالأسباب ولم يأخذ المؤمنون بها ، فالله يجعل لهم على المؤمنين سبيلاً ، وقد ينهزم المؤمنون أمام الكافرين .

والحكمة العربية تعلمنا : إياك أن تعتبر أنّ الخطأ ليس من جند الصواب . لأن الإنسان عندما يخطىء يُصَحَّحُ له الخطأ ، فعندما يعلم المدرس تلميذه أن الفاعل مرفوع ، وأخطأ التلميذ مرة ونصب الفاعل ؛ فهذا يعنى أنه أخذ القاعدة أولاً ثم سها عنها ، والمدرس يصحح له الخطأ ، فتلتصق القاعدة فى رأس التلميذ بأن الفاعل مرفوع . وهكذا يكون الخطأ من جنود الصواب . والباطل أيضاً من جنود الحق .

فعندما يستشرى الباطل فى الناس يبرز بينهم هاتف الحق . وهكذا نرى الباطل نفسه من جند الحق ، فالباطل هو الذى يظهر اللذعة من استشراء الفساد ، ويجعل البشر تصرخ ، وكذلك الألم الذى يصيب الإنسان هو من جنود الشفاء ؛ لأن الألم يقول للإنسان : يا هذا هناك شىء غير طبيعى فى هذا المكان . ولولا الألم لما ذهب الإنسان إلى الطبيب .

علينا ـ إذن ـ أن نعرف ذلك كقاعدة : الخطأ من جنود الصواب ، والباطل من جنود الحق ، والألم من جنود الشفاء ، وكل خطأ يقود إلى صواب ، ولكن بلذعة ، وذلك حتى لا ينساه الإنسان . وتاريخ اللغة العربية يحكى عن العلامة سيبويه ، وهو من نذكره عندما يلحن أحد بخطأ فى اللغة ؛ فنقول : « أغضب المخطىء سيبويه » ؛ لأن سيبويه هو الذى وضع النحو والقواعد حتى إننا إذا أطلقنا كلمة الكتاب فى عرف اللغة فالمعنى ينصرف إلى كتاب سيبويه ؛ فهو مؤلف الكتاب .

وسيبويه لم يكن أصلاً عالم نحو ، بل كان عالم قراءات للقرآن ، حدث له أن كان جالساً وعيبت عليه لحنة فى مجلس ، أى أنه أخطأ فى النحو وعاب عليه من حوله

ذلك ، فغضب من نفسه وحزن ، وقال : والله لأجيدن العربية حتى لا ألحن فيها . وأصبح مؤلفاً فى النحو .

ومثال آخر : الإمام الشاطبى ـ رضى الله عنه ـ لم يكن عالم قراءات بل كان عالماً فى النحو ، وبعد ذلك جاءت له مشكلة فى القراءات فلم يتعرف عليها ، فأقسم أن يجلس للقراءات ويدرسها جيداً . وصار من بعد ذلك شيخاً للقراء . فلحنة ـ أى غلطة ـ هى التى صنعت من سيبويه عالماً فى النحو ، ومشكلة وعدم اهتداء فى القراءات جعل من الإمام الشاطبى شيخاً للقراء ؛ على الرغم من أن سيبويه كان عالم قراءات ، والشاطبى كان رجل نحو .

ولذلك أكررها حتى نفهمها جيداً : الخطأ من جنود الصواب ، والباطل من جنود الحق ، والألم من جنود الشفاء والعافية .

وقد نجد الكافرين قد انتصروا فى ظاهر الأمر على المؤمنين فى بعض المواقع مثل أحد ، وكان ذلك للتربية ؛ ففى « أحد » خالف بعض المقاتلين من المؤمنين رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت الهزيمة مقدمة للتصويب ، وكذلك كانت موقعة حنين حينما أعجبتهم الكثرة :

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾

(من الآية ٢٥ سورة التوبة)

والشاعر العربى الذى تعرض لهذه المسألة قال :

إن الهـزيمـة لاتكـون هـزيمـة ... إلا إذا لم تـقـتـلع أسـبـابهـا
لكن إذا جهـدت لتطرد شـائبـاً ... فالحمق كل الحمق فيمن عابها

فعندما يقتلع الإنسان أسباب الهزيمة تصبح نصراً ، وقد حدث ذلك فى أحد ، هم خالفوا فى البداية فغلبهم الأعداء ، ثم كانت درساً مستفاداً أفسح الطريق للنصر .

فإن رأيت أيها المسلم للكافرين سبيلاً على المؤمنين فلتعلم أن الإيمان قد تخلخل فى نفوس المسلمين فلا نتيجة دون أسباب ، وإن أخذ المؤمنون بالأسباب أعطاهم النتائج . فهو القائل :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾

(من الآية ٦ سورة الأنفال)

فإن لم يعدّ المؤمنون ما استطاعوا ، أو غرّتهم الكثرة فالنتيجة هى الهزيمة عن استحقاق ، وعلى كل مؤمن أن يضع فى يقينه هذا القول الربانى :

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾

(من الآية ٤٣ سورة فاطر)

إن إعلان الإيمان بالله ليس هو نهاية أى شىء بل هو البداية ، والمؤمن بالله يأخذ جزاءه على قدر عمله . ويغار الله على عبده المؤمن عندما يخطىء ، لذلك يؤدبه ويربيه ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد أن الإنسان منا قد لا يصبر على مراجعة الدروس مع أولاده فيأتى بمدرس ليفعل ذلك ؛ لأن حب الأب لأولاده يدفع الأب للانفعال إذا ما أخطأ الولد ، وقد يضربه . أما المدرس الخارجى فلا ينفعل ؛ بل يأخذ الأمور بحجمها العادى . إذن فكلما أحب الإنسان فهو يتدخل بمقياس الود ويقسو أحيانا على من يرحم .

والشاعر العربى يقول :

فقسى ليزدجروا ومن يكُ حازما ... فليقس أحيانا على من يرحمُ

ومثال آخر ـ ولله المثل الأعلى ـ الإنسان إذا ما دخل منزله ووجد فى صحن المنزل أطفالاً يلعبون الميسر منهم ابنه وابن الجار ، وطفل آخر لا يعرفه ، فيتجه فوراً إلى ابنه ليصفعه ، ويأمره بالعودة فوراً إلى الشقة ، أما الأولاد الآخرون فلن يأخذ ابن الجار إلا كلمة تأنيب ، أما الطفل الذى لا يعرفه فلن يتكلم معه .

وهكذا نجد العقاب على قدر المحبة والود ، والتأديب على قدر المنزلة فى النفس .

ومن لا نهتم بأمره لا نعطى لسلوكه السيىء بالاً . وساعة نرى أن للكافرين سبيلاً على المؤمنين فلنعلم أن قضية من قضايا الإيمان قد اختلت فى نفوسهم ، ولا يريد الله أن يظلوا هكذا بل يصفيهم الحق من هذه الأخطاء بأن تعضهم الأحداث . فينتبهوا إلى أنهم لا يأخذون بأسباب الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾

نعرف واقع المنافقين أنهم يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ؛ ويوضح الحق : إياكم أن تظنوا أن فى قدرة مخلوق أن يفعل شيئاً بدون علم الله ، وقد يمكر إنسان بك ، وهو يعلم أنك تعلم بمكره ، فهل هذا مكر ؟ لا ؛ لأن المكر هو الأمر الذى يتم خفية بتدبير لا تعلمه ، والأصول فى المكر ألا يعلم الممكور به شيئاً . والمنافقون حين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر يخادعون من يعلم خافية الصدور . وكان يجب أن يأخذوا درساً من معاملة الله بوساطة المؤمنين لهم ، فقد صان المؤمنون دم المنافقين ومالهم . وأجرى المسلمون على المنافقين أحكام الإسلام ، لكن ما الذى يبيته الله لهؤلاء المنافقين ؟ لقد بيت لهم الدرك الأسفل من النار . فمن الأقدر ـ إذن ـ على الخداع ؟

إن الذكى حقاً هو من لا يخدع من يعلم أنه قادر على كشف الخداع . وكلمة « خدع » تعنى مكر به مكراً فيبدى له قولاً وفعلاً ويخفى سواهما حتى يثق فيه . وبعد ذلك ينفذ المكر . وهناك كلمة « خدع » وكلمة « خادع » . والحق فى هذه الآية لم يقل إن الله يخدعهم ، بل قال : « يخادعون الله وهو خادعهم » .

و« خادع » تعنى حدوث عمليتين ، مثل قولنا : قاتل فلان فلانا . فالقتال يحدث